النَّقدُ الإسلاميّ للأدب بين النَّظريَّة والتَّطبيق

رواية نائب "عزرائيل" أنموذجاً

مجدي حاج إبراهيم*

مدخل

لقد انصبَّ اهتمام دعاة الأدب الإسلامي في تنقيح الأدب العربي ـ شعراً ونثراً ـ من الشوائب والدخائل التي انحشرت بين طياته مع زحمة الأحداث، وبسبب غياب الرقابة الواعية على أشد المؤلفات تأثيراً في الإسلام ومعتقداته لضراوتها، وشراستها، وتطاولها عليه. فنراهم في نقد النثر ـ مثلاً ـ قد هاجموا نجيب محفوظ في (أولاد حارتنا)، وأعلنوها حرباً ضروساً على سلمان رشدي في آياته الشيطانية. ولكن ظلت هناك بعض الأعمال والمؤلفات التي مست الإسلام في شيء من مبادئه وقيمه في مأمن بعيدةً عن أعين الرقباء. وربما يرجع سبب سكوت النقاد الإسلاميين عنها، إلى أنها لم

* دكتوراه في الترجمة من الجامعة الوطنية الماليزية عام ٢٠٠٣، وأستاذ مساعد بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

تصل في فحشها وتطاولها إلى مستوى تلك المؤلفات سيئة الذِّكر، أو لأن الهدف في هذه المرحلة لم يكن حصرَ الدخيل على الإسلام بقدر ما كان موجهاً إلى تأصيل مفهوم الأدب الإسلامي وتأطيره، وتحديد الضوابط التي يجب أن يلتزم بها الأديب المسلم، فالنماذج التي استشهدت بها كتب الأدب الإسلامي، إنما كانت أمثلةً جاءت لغرض الإيضاح لا الحصر.

إن محاولة حصر الأعمال التي تمسُّ الإسلام عقدياً ليست بالعمل اليسير، فباب الأدب العربي الإسلامي قد أُهمل وتُرك مفتوحاً لمدة طويلة من الزمن، استطاع خلالها كثير من المجترئين التسلل والتطفل عليه واحتلال أماكن مرموقة وصلت للصدارة في بعض الأحيان.

ولقد مررت في مطالعاتي للأدب العربي على أشعار، وقصص كثيرة، رأيتها تخرج عن حدود دائرة المسموح به. لكن لم يخطر ببالي أن أتكلم عنها أو ألمح لها لأنني كنت على قناعة بأن الجمال والقبح لا يخفيان على العيون الساهرة والعقول الواعية، كما أنني لم أكن أتوقع أن يغفل جهابذة الأدب والنقد التعليق على مثل هذه المؤلفات. لكنني فوجئت عندما رأيت رواية (نائب عزرائيل) ليوسف السباعي التي حلقت في عالم الغيبيات بحرية وصلت لدرجة التهكم والسخرية من ملك الموت تلقى ترحيباً وقبولاً لدى النقاد. والذي زاد من دهشتي وحيرتي ودفعني لكتابة هذا البحث أن من بين النقاد الذين أشادوا بهذه الرواية علماً من أعلام الأدب الإسلامي، هو الدكتور عبد العزيز شرف، أستاذ الإعلام الإسلامي، وأحد مؤلفي كتاب (الأدب الإسلامي، المفهوم والقضية). حقيقةً لقد صدمت عندما علمت أن فضيلة الدكتور لا يرى فيها أي خروج عن إطار العقيدة الإسلامية. وظننت في بادئ الأمر أن د. شرف كتب تعليقه الظريف على رواية (نائب عزرائيل) قبل أن تتبلور قضية الأدب الإسلامي في فكره. لكنني فوجئت بأن رأيه فيها جاء بعد سنة من إصدار كتابه (الأدب الإسلامي).

من هنا فقد عزمت على كتابة هذا البحث لتوضيح خطورة مواضع الزلل في رواية (نائب عزرائيل) وإظهار الجرأة التي جاوزت حدها عند مؤلفها، ومن ثَمَّ لفت الانتباه إلى أهمية إعادة النظر في أصول وضوابط الأدب والنقد الإسلامي، وضرورة التزام دعاة الأدب الإسلامي بما ينادون به قولاً وفعلاً. فلا نريد أن يكون حديثنا عن الأدب الإسلامي مجرد خاطرة عابرة، أو رأيا ندفنه في مقالة أو كتاب.

وقد بدأت بحثي بتلخيص الرواية وعرض أهم أحداثها، ثم الإشارة إلى نقد وتحليل د. شرف لها، وأخيراً حاولت تقويم الرواية من خلال وضعها تحت مجهر العقيدة الإسلامية لاستبيان حقيقتها.

الرواية

تعد رواية (نائب عزرائيل) أول مؤلفات يوسف السباعي، وقد نشرت عام ١٩٤٧م، وتقع في مائة وأربع وثلاثين صفحة مقسمة على أحد عشر فصلا. أبطال الرواية: يوسف (الراوي) وهو نائب عزرائيل؛ وعزرائيل، والأرواح التي سيتولى نائب عزرائيل قبضها.

تبدأ الرواية في السماء، حين يكتشف يوسف أن روحه صعدت إلى السماء خطأً، فقد دخلت كل الأرواح التي كانت معه السماء وتركته وحيداً واقفاً على بابها. وبعد فحص كشف الموتى يتضح الخطأ الذي وقع فيه عزرائيل، فقد التبس عليه الاسم لأول مرة في تاريخ السماء، ويكتشف أنه أخذ روحاً بدلاً من أخرى بالخطأ. وهنا يتقدم عزرائيل معتذراً، ويطلب من يوسف كتم سرَّ الموت، فهو سهل غير مؤلم بعكس ما يتخيله البشر. ثم يطلب من روح يوسف العودة إلى الأرض، في الوقت الذي يعلن فيه صاحب الروح رغبته في البقاء، إذ إنه أحس في تحرره من الجسد والأرض بدبيب حياة جديدة أفضل من حياته الأولى بكثير. لكن عزرائيل يصر على إعادته وأخذ الروح الأصلية وإصلاح الخطأ بأسرع وقت ممكن.

وأثناء عودتهما إلى الأرض، يتذكرّ عزرائيل موعداً غرامياً مع حبيبته، إحدى حوريات الجنة الفاتنات. فهو نادراً ما يزورها لانشغاله الدائم بقبض الأرواح، ولولا هذا الخطأ لكان معها الآن. وعندها يتطوع يوسف للقيام بدور عزرائيل في قبض الأرواح لبعض الوقت حتى يمنح عزرائيل وقتاً لمقابلة حبيبته، ويؤجل أمر رجوعه للأرض. ويوافق عزرائيل، وبسرعة يعطي نائبه قائمة الوفيات المطلوبة، وأدوات العمل؛ وهي عبارة عن عصا صغيرة لفصل الروح عن الجسد، وكيس لحمل الأرواح. وبعدها يفترق الصديقان، عزرائيل إلى الجنة، ونائبه إلى الأرض.

وبعد اطلاع نائب عزرائيل على القائمة الجديدة، يتضح له بأن جميع الأرواح المطلوبة أرواح بريئة لم تذنب في حق البشرية والإنسانية. وهنا يتفتق ذهنه عن فكرة خطيرة، وهي عدم الالتزام بالقائمة، وقبض الأرواح الشريرة بدلاً منها لتطهير الأرض من المجرمين والمفسدين. لكن قبل تنفيذ الخطة، يجب إنقاذ الأرواح المطلوبة من قدرها أولاً.

الاسم الأول كان لفتاة في مقتبل العمر تموت غرقاً. يصل نائب عزرائيل إلى الشاطئ مبكراً، ويقضي بعض الوقت في التطلع إلى الأجساد العارية. وعندما تحين نهاية الفتاة، يضطر نائب عزرائيل إلى استعارة جسد حبيبها الذي يجهل السباحة لإنقاذها بعد أن أخرج روح حبيبها وحبسها في كيس الأرواح. ولم ينس أن يطبع قبلة على شفتي الفتاة قبل إعادة روح الفتى إلى جسده.

أما الاسم الثاني فكان لعائلة كاملة تموت تحت أنقاض بيتهم القديم الذي سينهار عليهم. وهنا يدخل نائب عزرائيل جسد طفل، يسرق الملابس من ذلك البيت، ليخرج جميع أهله وينقذهم. وكان الأجل الثالث لرجل سمين يموت من التخمة. لم يستطع نائب عزرائيل إيقاف الرجل من التهام طعامه إلاّ عندما احتل جسد قطة قلبت المائدة الوفيرة، وأنقذته من قدره.

أما الروح الرابعة فكانت لشاب تصدمه سيارة أجرة أثناء معاكسته إحدى الجميلات. وهنا يحل نائب عزرائيل في أكثر من جسد لأصحاب سيارات الأجرة، لكنه لا ينجح. حتى يضطر أخيراً إلى الدخول في جسد الجميلة نفسها لإنقاذ تابعها. ولم ينس قبل أن يعيد روح المرأة أن يشبع فضوله البشري في التعرف على الجسد الجميل.

وأخيراً، مجموعة أرواح تلقي حتفها بعد اصطدام قطارين. لكن في هذه المرة لَمْ يتمكن نائب عزرائيل من تحقيق هدفه النبيل، فعزرائيل الحقيقي قد نزل إلى الأرض. ويلوم عزرائيل صاحبه على عدم التزامه بالاتفاق، إلا أنه لا يلبث أن يعفو عنه لأنه بشر. وأخيراً يعود يوسف إلى جسده وإلى الحياة على الأرض من جديد، لكنه يفاجأ بأهله وقد انشغلوا بالميراث يوسعونه سباً وشتماً. وهنا يرجو من عزرائيل أن يعجِّل بقبض روحه، ويحشره في أول كشف جديد لقبض الأرواح.

ويحقق الصديق المخلص عزرائيل رغبة صديقه يوسف بوضع اسمه في الكشف الجديد، لتصعد بعدها روح نائب عزرائيل إلى السماء، وتنتهي القصة.

وقفة مع ناقد

تناول التعليق على هذه الرواية عددٌ قليلٌ من الأدباء والنقاد، فالسباعي لم يحظ

باهتمام كبير من النقاد كبقية رواد جيله[١]. وجل هذه التعليقات ـ على الرغم من قلتها ـ تنظر إلى الرواية على أنها عمل اجتماعي تحمل رؤى وتصورات اجتماعية.

ومما جاء في هذه التعليقات رأي د. السعيد الورقي الذي يقول: "وبالرغم من سيطرة جو الحدث المتخيل على روايتيه الأوليين (نائب عزرائيل) و(أرض النفاق)، إلا أنه كان واضحاً منذ البداية أن الكاتب لديه تصورات واضحة عن مشكلات اجتماعية، وأنه معني بالكشف عما في الواقع الاجتماعي من تناقضات تتطلب منه بحكم وظيفته بوصفه كاتب قصة أن يقدم لها حلولا مثالية"[٢]. أما د. سيد حامد النساج فيرى أن السباعي "يخلق لنفسه عالماً يوتوبياً حالماً، لا سبيل إلى تحقيقه مطلقاً. وإن كان على النقيض تماماً مع العالم الواقعي الذي دفعه إلى هذا السبيل، فهو يجد في السماء ما لا يجده في الأرض، وهو يجد في الحلم ما لا يجده في اللاحلم. وهو يحظى في المبالغة والتضخيم بمتعة لا يقدمها الصدق الواقعي. وهو يجد في السخرية والفكاهة عزاء عما تفرضه الظروف من قتامة وعبوس وكبت للحرية الفردية. ومن هنا حاول يوسف السباعي في (نائب عزرائيل) و(أرض النفاق) تقديم رؤية مثالية عامة، تنطبق على الإنسان في أي زمان وفي أي مكان"[٣]. ويعلق فتحي سلامة على مؤلفات السباعي إذ يقول: "لهذا نرى أن كل رواية من روايات يوسف السباعي بداية من (نائب عزرائيل) إلى (العمر لحظة) تعالج خطاً فكرياً واحداً يمثل رؤية يوسف السباعي، وهو: الإنسان، الموت، الحرية. لكنه في كل رواية يحاول أن يوضح فرعاً من فروع خطه العام".[٤]

في بداية الأمر لم تشغلني هذه الانتقادات والتعليقات كثيراً فهي ـ بالنسبة لي ـ تعليقات فنية بحتة، حتى وقعت عيناي على كتاب (الفن الروائي والوعي الأخلاقي) للدكتور عبد العزيز شرف، الذي تعرض للسباعي ولروايته (نائب عزرائيل).

---

[١] انظر: فتحي سلامة، **تطور الفكر الاجتماعي في الرواية العربية** (الكويت: دار الكتاب الحديث، ١٩٨٠، ط١) ص١١٦-١١٧.

[٢] د. السعيد الورقي، **اتجاهات الرواية العربية المعاصرة** (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩) ص٥٩.

[٣] د. سيد حامد النساج، **بانوراما الرواية العربية الحديثة** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٠، ط١) ص٥٠.

[٤] فتحي سلامة، **تطور الفكر الاجتماعي في الرواية العربية**، ص١٣٥.

فتحمست لقراءة تعليقه ـ بوصفه علماً من أعلام الأدب الإسلامي ـ وكنت أظن أنني سأجد عنده ما يطفئ غيظي وحنقي على السباعي الذي وصم ملك الموت بصفات البشر من خطأ، وعشق، وتلاعب بالمسؤولية. لكنني ـ وللأسف الشديد ـ لم أجد في تعليقه أكثر مما ذهب إليه بقية النقاد الفنيين من كون الرواية تخدم غرضاً اجتماعياً. ومن ثم حاولت جاهداً أن ألملم خيط هذا الغرض الاجتماعي الذي تحدث عنه هؤلاء النقاد، فوجدته غرضاً هامشياً، فمحور الرواية لا يخرج عن العبث واللهو. وقبل الإسهاب والمضي قدما في تحليل الرواية، يجدر بنا أن ننظر إلى ما جاء على لسان د. شرف عند تحليله لها.

لقد خصص د. شرف في كتابه ستاً وستين صفحة للحديث عن السباعي وأدبه، ويظهر بوضوح أن السباعي يحظى لديه بمكانة متميزة، ترعاها نظرة التقدير والاحترام، فهو يراه: "أديباً حمل أمانة الكلمة وعبَّر عنها بوحي من إيمانه، ذلك أنه تخصص مع جيله والجيل التالي في إبداع فن أكثر عصرية، هو فن الرواية"[٥]. ويصفه في موطن آخر "بالشجاعة، والعزيمة، والإقدام، وحسن النية، وعدم الغرور، والأمانة، والإنسانية. فالسباعي يتميز بروح الفكاهة والسخرية والتسامح، الأمر الذي يتيح له بوصفه فناناً قدرة كبرى على التأثر بالمؤثرات الخارجية وعلى التمييز بينها".[٦] ومن صفات السباعي الأساسية أيضاً، "معرفته بالحياة المصرية، والقاهرية خاصة، وتجارب الناس بوجه عام، وقدرته على استنتاج وتخيل ما لا يعرفه مما يعرفه، في توظيف فني للخيال لبناء صورة كاملة للحياة المصرية من لمحة أو نظرة عابرة أو حديث تلتقطه أذنه مصادفة، ويعمل الخيال والإدراك والفن في الإبداع الأدبي بوجه عام".[٧]

لا غرو إذاً بعد كل هذا الإطراء ألا يخلو رأي د. شرف في روايات السباعي من إطراء ومدح أيضاً. فهو يراها قدمت عملاً اجتماعياً يستحق التقدير حين يقول: "السباعي حاول في إنتاجه أن يرضي المثقفين والنساء والشباب، ذلك لأنه يستخدم الرواية في إطار رؤياه الإبداعية المتميزة استخداماً اجتماعياً. ففي رواية (نائب

---

[٥] د. عبد العزيز شرف، **الفن الروائي والوعي الأخلاقي** (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٣، ط١) ص٤٥.

[٦] المصدر السابق، ص٥١.

[٧] المصدر السابق، ص٧٣.

عزرائيل) يحرص المؤلف على النقد الاجتماعي، ويسلط سيف السخرية على السفهاء الذين يبدون في بلادنا كبراء، واللؤماء عظماء. فهو يستغل الأحداث والمواقف لإبراز دلالتها الاجتماعية، وذلك بعد الانتهاء من سرد الموقف".٨

يستشهد د. شرف ببعض العبارات التي جاءت متفرقة في الرواية لدعم نظرة السباعي الاجتماعية، كقول الراوي:

"وشرد ذهني وتذكرت مصيبة هذا البلد بمشاريعه المغرضة المرتجلة.. فما من عمل أقيم إلا كان المقصود به غير حقيقته، وما من مشروع إلا كان أساسه الخداع والتهريج".٩

وبالرجوع إلى الرواية، تبين لي أن هذه العبارة هامشية لا علاقة لها بمحور الرواية، فالسباعي كان في استطاعته قول رؤاه الاجتماعية ـ إن صح التعبير ـ بدون اللجوء إلى تسلق السماء وتجريد أحد الملائكة من هيبته وقدسيته. لكن د. شرف يصر على أن يطبع الرواية بالصبغة الاجتماعية التحليلية، ويلخص أهم الأبعاد الاجتماعية التي تعرضت لها الرواية في خاتمتها، حيث يقول: "وهنا يتحقق البعد الاجتماعي في نموذج السباعي، فما أن يعود نائب عزرائيل إلى الحياة على الأرض ظانا أن عودته ستعيد الفرحة إلى أهله، حتى يفاجأ بهم مشغولين عنه بالميراث، ويوسعونه سباً وشتماً في كل صلاة، فيرجو عزرائيل أن يحشره في أول كشف لقبض الأرواح".١٠

وإني أتساءل هنا عن البعد الاجتماعيّ الذي يقصده د. شرف؟ هل هذه الصورة القاتمة التي رسمها السباعي في تهافت أهل الفقيد على الميراث على الرغم من كرههم له هي واقع المجتمع؟ وإن كان المجتمع ـ بكل شرائحه وطبقاته ـ يمكن أن يضم مثل هذا الأنموذج، فإن علاقة أهل الميت بفقيدهم ومعاملتهم له بعد رحيله مرآةٌ لمعاملته إياهم أثناء حياته. فليس الراوي ضحيةً خُدع في أهله كما حاول السباعي رسمه، ود. شرف تأكيده!

ولو سلمنا بالبعد الاجتماعيّ المزعوم هذا، فكيف نغضُّ الطرف عن عبث السباعي بأحد الملائكة الذين كان الإيمان بهم ركناً ركيناً لا يقوم بدونه؟

يحاول د. شرف جاهداً أن يبرر تجاوزات السباعي في إبحاره في عالم الغيبيات بدون

---

٨ المصدر السابق، ص٥٠.

٩ المصدر السابق.

١٠ المصدر السابق، ص٩٢.

قيد وضابط، فهو يقرّ للسباعي مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، إذ يقول: "وهو لذلك يتحرر من قيود الزمن وواقعية المكان في (نائب عزرائيل) موظّفاً هذا التحرر للنقد الاجتماعي"١١. فتحرر السباعي وجنوح خياله وجرأته على الغيبيات لا ضير فيها، بل هي تحسب في ميزان حسناته، ذلك لأن خيال السباعي "لا يقرّ على قرار، فيتجاوز الحاضر إلى المستقبل أو إلى الماضي، ولذلك نلاحظ في أدبه اغتراباً مكانياً، لا يقل خطراً عن اغترابه الزمني، وهو بذلك يفر بنماذجه إلى بيئة أخرى، يحلق فيها بخياله، يجد فيها عوضاً عما ضاق به، على نحو ما نجده في أولى روايته من دلالة حتمية على المعنى الاجتماعي والنزعة الإنسانية، وفي هذا تبدو أصالة السباعي في مقدمة روايته:

الإهداء إلى سيدنا عزرائيل.. الجميل! هذا الكتاب يا سيد عزرائيل، أنت بطله، فهو منك وإليك، حاولت فيه بدافع الوفاء أن أظهرك للبشر على حقيقتك - أو على ما أظنه حقيقتك - وأن أزيل من أذهانهم تلك الصورة الشوهاء الشنعاء التي يتخيلونك بها. لست أدري إلى أي حد نجحت، ولا إلى أي حد قد أرضيت.. أجل إلى أي حد قد أرضيتك وأرضيت البشر وأرضيت نفسي؟ أما عن نفسي.. فهي راضية، ولست أشك أن في رضاها مظهراً من مظاهر الغرور الذي يلازم الإنسان..! أما عن البشر فلا أظن هناك إنسانا استطاع أن يرضيهم..! أما عنك.. فما رأيك؟ لا تتسرع وتعلن سخطك، واذكر أنني لم أقصد بكتابي إلا إنصافك وتقديرك.. وإنما الأعمال بالنيات".١٢

وإني هنا لتأخذني الدهشة والحيرة كل مأخذ، فأين الإنصاف والتقدير اللذان يتحدث عنهما السباعي في تصوير ملك الموت في صورة بشرية ووصفه ووصمه بصفات البشر الضعيفة المهينة. لقد صب د. شرف كل تركيزه في تحليل الرواية على بعدها الاجتماعيّ فقط، و لم يلتفت إلى قضية إمكانية التأليف وجوازه بدون قيد أو ضابط في الغيبيات والمعتقدات! لقد تجاهل د. شرف مساس الرواية بالغيبيات والمعتقدات، فقبل الرواية بكل شطحاتها وتجاوزاتها، لذلك فإن تصوير عزرائيل في هذه الصورة المخزية لم يستفزه على الإطلاق. والعجيب في الأمر أن د. شرف يؤكد

---

١١ المصدر السابق، ص٧٤.

١٢ المصدر السابق، ٨٨.

بأن التصوير البشري لعزرائيل ضرورة تحتمها الرواية، فلا يمكن أن تستقيم الرواية إلا به، وفي ذلك يقول: "النموذج في أدب السباعي يتميَّز بتصوير أبعاده الثلاثة: الجسمي والنفسي والاجتماعي، فالسباعي يعترف بأنه بذل جهداً في محاولة تخيل عزرائيل، لذلك نراه يقدم صورة للبعد الجسمي العزرائيلي تتناقض مع تلك الصورة المرسومة في أذهان البشر. ويتكامل هذا البعد النفسي لنموذج عزرائيل في الاستعداد والسلوك، والرغبات والآمال، والعزيمة، والفكر، والمزاج في انفعال وهدوء، وانطواء، وانبساط. فعزرائيل كما يصوره السباعي جميل في بعده الجسمي، وهو لذلك عاشق في بعده النفسي، يعشق حورية ما رأيت أفتن منها ولا أجمل. ويرتبط البعد الاجتماعي بالحدث والشخصية جميعاً، وهو بذلك يتوسل بالنمذجة لتجسيد المضمون الأخلاقي. وقد كان السباعي أميناً في تصوير الصعاب الكثيرة التي واجهت الرواية المصرية في تلك المرحلة، الأمر الذي يعطي لروايته مذاق الصدق الفني، والدقة في الحكم والبناء. فلو لم يصور البعد الجسمي لعزرائيل تصويراً يبين جماله، لما كان من المنطقي أن يصوره عاشقاً في بعده النفسي، فضلاً عن النقد الاجتماعي الذي يتخلل الحوار بينه وبين نائبه، وفي ذلك ما يوضح حرص السباعي على تأكيد البعد الاجتماعي والنزعة الإنسانية من خلال الربط بين الملائكة والبشر".[١٣]

لقد حاول د. شرف أن يضمن مسوغاته لتحرر السباعي بعبارات اجتماعية رنانة مثل: الرؤية الاجتماعيَّة، والنقد الاجتماعيّ، والبعد الاجتماعيّ. فما من فكرة يتبنَّاها ويثيرها أو وجهة يرتئيها إلا ويُقفِّيها بهدف اجتماعيّ. لقد كلف د. شرف نفسه شططاً بتفسير وتبرير موقف عزرائيل العاشق بأن الحب ـ عند السباعي ـ ظاهرة طبيعية، لذلك فلا غرابة أن نرى عزرائيل عاشقاً. وفي ذلك يقول: "ولذلك وجدنا السباعي يتخذ من مشكلة الحب إطاراً عاماً بوصفها ظاهرة إنسانية صرفة، وفي (نائب عزرائيل) عندما يتكلم البطل عن الوظيفة العملية للحب، يقول:

الحب شيء لا بُدَّ منه لكل كائن حي، إنه كالهواء الذي نتنفسه، ولا بد من الحب ما دامت الحياة، فالكائنات الحية لا بُدَّ لها من التوالد والتكاثر، ولا بد من حدوث التكاثر بين الجنسين، ولا بُدَّ للتقارب من جاذبية تدفع أحدهما إلى الآخر،

---

١٣ المصدر السابق، ص٨٩-٩١.

هذه الجاذبية هي ما يسمونه الحب.

وعزرائيل يرى أن مفهوم الحب على الأرض يقتصر على هدف التوالد والتكاثر، أما في العالم الآخر فالحب هدف في حد ذاته، يقول عزرائيل:

هذا هو تفسير الحب في دنياكم، أما عندنا فيخيل لي أن الكائنات أشبه بالأقطاب المغناطيسية لا يكاد القطب السالب يقترب من القطب الموجب حتى يندفع كل منها إلى الآخر، أجل! ما من روح إلا لها أليفها الذي تأنس به وتحس الراحة في جواره".١٤

وأخيراً، فإن د. شرف ينتهي إلى أن السباعي قد نجح في أن "يدمج الأبعاد الثلاثة [الجسمي، والنفسي، والاجتماعي] في رسم النموذج في مجرى الحدث والحركة بحيث يوحي بها دون تعبير مباشر تظهر فيه ذاتية الفنان، وتبلغ مقدرته الدرجة القصوى حين ينتج تصوير الأحداث أثره دون وعي من الشخصيات، على النحو الذي يذكرنا بتشيكوف. إلا أن السباعي يتخذ مكاناً إلى جانب (جوته) في (فاوست) حين يصور لنا نموذجاً خالداً لعزرائيل في الأدب".١٥

يتضح لنا مما سبق أن د. شرف في تحليله لرواية (نائب عزرائيل) قد استند على المنهج الفني الصرف، فنراه يؤكّد بعض الجوانب الفنية كتحقيق البعد الاجتماعي والنمذجة. لكنه ـ للأسف الشديد ـ لم يُبدِ أي اهتمام بمناقشة شرعية تمثيل ملائكة الله وإخضاعهم للهوى بدون قيد وضابط. وأنا عندما ألوم د. شرف وحده دون سائر النقاد الفنيين ـ الذين أشرت إليهم في بداية النقاش ـ في إغفاله لقضية المساس والعبث بالمسلمات الغيبية، إنما ألومه لمواقفه وآرائه القيمة في تثبيت أسس الأدب الإسلامي، فما كان يجب عليه أن يميل كل الميل لشخص السباعي متجاهلاً تجاوزاته وشطحات خياله.

بَيْدَ أنّي ـ على أي حال من الأحوال ـ لا أرمي إلى الإساءة إلى مكانة الدكتور شرف، والتقليل من موقفه تجاه الأدب الإسلامي، إلا أنه ينبغي علينا بجانب اهتمامنا بالقيم الجمالية، والفنية، والاجتماعية، أن نأخذ في عين الاعتبار صلاحية العمل الأدبي من منظور العقيدة الإسلامية أولاً، حيث إن فساد العقيدة يعني فساد جميع القيم

---

١٤ المصدر السابق، ص١٠٨.

١٥ المصدر السابق، ص٩٢.

الأخرى. وكان الأولى بالدكتور شرف دراسة خط الرواية في ظل حدود العقيدة الإسلامية بدلاً من التحليل الفني لوحده.

إن مهمة النقد أكبر من إجراء تحليل لنص من منظور أيديولوجي معين، فجمال النص وجدارته لا يتحققان إلا من خلال استيفاء دراسته وتحليله من كل الجوانب. وفي ذلك يقول أحمد جاسم الحميدي: "ليس المطلوب من النقد الأدبي أن يتحول إلى تحليل اجتماعي، أو نفسي، أو تنظير أيديولوجي بحثاً عن مضمون، أو فكرة أو غير ذلك. فالموضوع لا يحدد قيمة الأدب، وليس له أي قيمة معيارية، والمضمون لا يعطيه عظمته، ولا يلغي فرادته، والشكل ليس مطلوباً لحد ذاته، ولا مرغوباً فيه لنفسه، بالرغم من أنه شرط أساس ليكون الأدب أدباً"١٦. إن الأدب الإسلامي يجب أن يكون أدباً مسؤولاً وملتزماً بعقيدة صحيحة يستمد منها مضمونه الفكري، ذلك لأن "الأدب الإسلامي ليس عبثياً، ولا يمكن أن يكون كذلك".١٧

رواية (نائب عزرائيل) من منظور العقيدة الإسلامية

هذه الرواية التي نحن بصدد مناقشتها ليست أولى المحاولات التي سعت للتحليق في السماء والخوض في الغيبيات، فقد سبقتها روايات يرجع بعضها إلى القرن الثالث الهجري، من أشهرها رسالة الغفران لأبي العلاء المعري (٣٦٣-٤٤٩هـ) التي تُعد من أوائل التجارب الأدبية الإسلامية التي أطلقت للخيال العنان في اقتحام السماء. وبالرغم من التزام المعري بعدم المساس بالمعتقدات المسلّم بها، إلا أنه لم يَسْلَم من النقد أيضاً وذلك عندما أدخل كبار الشعراء الجاهليين الجنة.

لكن هذه المحاولات لم تشجّع الكتّاب على التأليف في عالم الغيبيات، فقد تجنبوه خوفاً وإشفاقاً على أنفسهم من جنوح خيالهم الذي قد يودي بهم إلى مهاوي الكفر والزندقة. فضلاً عما يعتري هذا النوع من التأليف صعوبات تتصادم فيما بينها، تكمن في وجوب الاعتدال بين الالتزام والحرية، "مما يتطلب من القاصّ مهارة خاصة ينبغي أن تتبدى في طرافة الحركة الخيالية

---

١٦ أحمد جاسم الحميدي؛ محمد جاسم الحميدي، **الرواية ما فوق الواقع** (دمشق: دار ابن هانئ، ١٩٨٥م) ص٨.

١٧ نجيب الكيلاني، **مدخل إلى الأدب الإسلامي** (قطر: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ١٩٨٧م، ط١) ص٣٥.

وجدتها من ناحية، وعدم اصطدامها بالثوابت من ناحية ثانية".١٨

وإذا عدنا إلى رواية (نائب عزرائيل) نجد أنها ـ وإن سلمنا بأهدافها الاجتماعية ـ قد تجرأت على ملك الموت بأن رمته في أمانته، وطعنته في عظمته! إن القضية هنا ليست قضية اجتماعية أو فنية، وإنما هي قضية إيمان. إن مسألة الإيمان واضحة، لا يمكن أن تتجزأ، والمساس بركن من أركانه الستة يعني هدمه بالكامل.

لقد ثارت ثائرة النقاد على نجيب محفوظ عندما تطاول في (أولاد حارتنا) على القيم والأصول في العقيدة الإسلامية، وتجرأ فصوَّر الله والأنبياء والرسالات السماوية على غير الحقيقة الإيمانية١٩، فلماذا لا نثور ونغضب إذاً عندما يمتهن ركن آخر من أركان الإيمان؟ إن قضية الإيمان واضحة، فصّلتها الشريعة، وقطعت عنها سبل الشك، وجعلتها في قالب عقائدي مسلّم به لا يمكن المساس أو العبث به.

وإذا نظرنا إلى منهج السباعي في كتاباته نجد أنه منهج متحرر لا يخضع لأي ضابط أو قيد، وهو ما يبرر سبب تجرئه وتطاوله على ملائكة الرحمن. وقد اعترف السباعي في مقدمة إحدى روايته بمنهجه الدخيل هذا، حيث يقول:

"فلقد سبق وأن قلت في مقدمة أحد كتبي إني عندما أكتب، أكتب متحرراً من كل شيء حتى من قيود الهدف، وإني أترك الأفكار تنساب من ذهني كما يتراءى له ولها، فأريحه من حملها وأريحها من حصاره".٢٠

سأحاول في تعليقي هنا عرض بعض التعليقات المسيئة في حق ملك الموت عزرائيل عليه السلام والتي وصلت لحد الاستخفاف والتهكم والسخرية. فعزرائيل عليه السلام في رواية السباعي رجل، عاشق، مهمل في أداء عمله، يتلاعب بالمسؤولية المنوطة إليه. والغريب في الأمر أن السباعي يدعي في مقدمة روايته أن هدفه من تجسيد عزرائيل ومنحه دور البطولة من أجل تحسين صورته الشوهاء في أعين الناس، وإنصافه وتقديره.

لا يخفى علينا أن السباعي يجيد فن التلاعب بالكلمات. لقد ظن أن إهداء الرواية

---

١٨ أحمد درويش، **تقنيات الفن القصصي عبر الراوي والحاكي** (القاهرة: الشركة المصرية العالمية، ١٩٩٨م، ط١) ص٢٦.

١٩ أحمد أبو زيد، **الهجوم على الإسلام في الروايات الأدبية، دعوة الحق** (مكة المكرمة: مطابع رابطة العالم الإسلامي، السنة الثالثة عشرة، العدد ١٤٥، ١٤١٥هـ) ص٤٧.

٢٠ يوسف السباعي، **البحث عن جسد** (مصر: لجنة النشر للجامعيين، بدون تاريخ) ص١٣٩.

لعزرائيل كفيلة بأن ترضي القراء، وتحول القصة بكل محتوياتها إلى نكتة عابرة أو مزحة بريئة. لكن هل كان السباعي يقصد بالفعل إنصاف وتقدير عزرائيل؟ هل من الإنصاف والتقدير أن يلصق عليه صفة الخطأ والغفلة. لا يكتفي السباعي بنسب الخطأ غير المقصود إلى عزرائيل، بل يجعله يقرّ بأن تأخير قبض بعض الأرواح في بعض الأحيان أمر طبيعي في عرف السماء، وذلك عندما يطرق رأسه للراوي معتذراً:

"الظاهر قد حدث التباس في الأمر.. لقد أخطؤوا في المجيء بك إلى هنا.. فلست أنت المقصود، بل المقصود هو صاحب الاسم الذي في الكشف.. حقيقة أن الاسمين متشابهان، ولكن ذلك لا يمكن أن يكون عذراً لارتكاب مثل هذا الخطأ.. فهو خطأ مخجل شنيع.. بل هو الأول من نوعه.. فقد يحدث أن نتأخر قليلا في إحضار شخص.. أما أن نحضر شخصاً سواه، فأمر لا يتصوره عقل".[٢١]

إن الجرم الذي ارتكبه السباعي في نسبة الإهمال والتفريط لملك الموت ــ وإن كان على سبيل المزاح والدعابة ـ جرم عظيم. ولست أدري كيف سكت النقاد عن هذا المجون والإسفاف والله يقول في محكم آياته: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ المَوتُ تَوَفَّتهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطِونَ﴾ {الأنعام: ٦١}، إن نسْب التفريط والنقص والزلل للملائكة كفر يخرج من الملة، ذلك لأنهم رسل الله، وكّلهم ــ عز وجل ــ وفوّض إليهم أمر تنفيذ أوامره، حيث قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ المَوتِ الَّذي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ {السجدة: ١١}، فتقصير الملائكة في أداء مهامهم يعني تقصير من وكلهم في سوء اختياره لهم.. تعالى الله عن ذلك علواً عظيماً!

ثم لا يكتفي السباعي بوصم عزرائيل بالخطأ والإهمال، بل يصفه بالخيانة أيضاً. وذلك عندما يفوض أمر قبض الأرواح للراوي من أجل الحصول على ساعات حب، وأيضاً عندما يقدم اسمَ الراوي، صديقه، الذي لا يريد أن يعيش في الدنيا التي تنكرت له وشتمته في أول كشف للموتى. فهو هنا يجعل من عزرائيل إلهاً يتصرف كيفما يشاء، يقدِّم ويؤخّر، يميت ويحي؛ أو مسؤولاً كبيراً ذا صلاحيات مطلقة في مكتب إله غافل، والعياذ بالله! إن قضية الموت والأجل قد حسمها القرآن الكريم، فلا تقبل المزاح والتهريج، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ

---

٢١ يوسف السباعي، **نائب عزرائيل**، ص١١.

يَسْتَقْدِمُونَ﴾ {الأعراف: ٣٤}، وقال أيضاً: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَو كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ {نوح: ٤}.

أما عن صفات عزرائيل وكنه ذاته، فالسباعي يصفه بأنه رجل، ليس أي رجل، بل رجل عاشق. وقد اتفق العلماء على أن الملائكة ليسوا إناثاً ولا رجالاً، فمن وصفهم بالإناث فهو كافر، ومن وصفهم بالذكور فهو فاسق. فهل يصح أن نجد هادم اللذات يتلوّع عشقاً في وصف حبيبته!:

" آه يا سيدي، لو رأيت قطبي الآخر.. إن جاذبيته لا تقاوم، حتى لقد أحسست بنفسي أندفع إليه اندفاعاً عنيفاً.. كأنني قنبلة صاروخية".٢٢

كما يظهر عزرائيل ـ بجانب عشقه وانشغال عقله وفؤاده بحوريات الجنة ـ رجلاً ضعيفاً مغلوباً على أمره عندما تضيق به السُّبل، فنرى الراوي يقول في سخرية عندما طلب منه عزرائيل كتم الخطأ الذي وقع فيه:

"وكان صوته مليئاً بالرجاء، ونظراته تستثير العطف حتى لم يسعني إلا أن ألبي رجاءه وأعده بما يطلب.. وإن كان الشيطان قد بدأ يوسوس لي ويحضني على ألا أرضخ ولا أمتثل.. عزرائيل.. ذلك الجبار الذي ترتجف من ذكره الأفئدة وتهلع من اسمه القلوب.. يقع في يدي.. فأتركه يفر بهذه السهولة.. وأعفو عنه بهذه البساطة.. ألم يكن من الأفضل أن أنتهز هذه الفرصة فأضج بالصياح وأفضحه بين أهل السماء.. أو على الأقل أساومه في مطلبه.. وأطلب منه أجراً نظيره. وأحسست بالكبرياء تملأ نفسي.. ولم أشعر أني تمنيت شيئاً قدر أن يراني أهل الأرض في هذا الموقف.. وعزرائيل المخيف الذي لا يرحم.. يرجوني العودة إلى الحياة.. وأنا أتأبى وأتمنع".٢٣

أما عندما يتكلم السباعي عن عمل عزرائيل في قبض الأرواح، فإنه يصوره – بطريقة غير مباشرة – في شكل ساحر يحمل في إحدى يديه عصا، وكيساً في اليد الأخرى يجمع فيها غلته. يصوب العصا إلى الروح المعنية، فتخرج طائعة وتستقر في كيسه. تقول الرواية:

"رأيته قد أخرج من عباءته عصا صغيرة وقدمها إلي.. وأخرج من جيبه ورقه مطوية

---

٢٢ يوسف السباعي، **نائب عزرائيل**، ص٢٩.

٢٣ المصدر السابق، ص١٣.

وكيساً صغيراً، وبدأ يشرح المهمة العجيبة قائلاً: هنا بيان بالأرواح المطلوبة قبضها.. وليس عليك إلا أن تشير إلى الروح بهذه العصا.. حتى تترك جسدها مطيعة صاغرة.. وعندما تتجمع لديك كل الأرواح المطلوب قبضها في هذا الكيس تحضرها إلي".[٢٤]

وشتان ما بين الصورة التي حاول السباعي رسمها لطريقة أداء عزرائيل مهامه، والصورة التي تكلم عنها السلف الصالح. يقول ابن كثير في وصف عمل عزرائيل: "ملك الموت عزرائيل له أعوان. وأن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت. قال مجاهد: حُويت له الأرض فجُعلت له مثل الطست، يتناول منها حيث يشاء".[٢٥]

أعود مرة أخرى لأتساءل: هل أنصف السباعي عزرائيل حقاً؟ أين الصورة الشوهاء هنا، هل هي تلك الصورة التي رسمها السباعي أم الصورة التي نستشفها من قوله تعالى في وصف ملائكته: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ {الأنبياء: ٢٦-٢٧}.

وأخيراً وعلى الرغم من كل مغالطات السباعي وافتراءاته في حق ملك الموت، إلا أنني لا أتهمه في دينه لأنه لا يحق لي ذلك أولاً. فضلاً عن أني ألمح إلى أن السباعي كان يدرك أن ما شطح به خياله ذنب في حق عزرائيل وقدسيته، وقد حاول أن يوضح أنه مؤمن يعرف قدْر عزرائيل ومكانته في مقدمة روايته عندما اعتذر مقدَّماً عن عبثه ومجونه، قائلاً:

"وهناك يا سيدي شيء آخر أخشى أن يثير حفيظتك علي وأن تفهمه على غير ما قصدته.. وهي تلك المزح التي قد تلمحها بين صفحات الكتاب.. فقد تحملها محمل العبث، ولكني لا أشك أنك ستلتمس لي العذر إذا علمت أني رجل أحب المزاح، وأنني أرى المرء لا يربح من حياته إلا ساعات الضحك.. وإذا ما علمت أيضاً أن الإنسان بطبيعته مخلوق مهرج.. وأنه لا يغريه شيء كالهزل والتهريج.. وأنك إذا ما أردت منه أن يستمع إليك، فأضحكه أولاً، ثم قل له ما تريد.. إذا علمت كل هذا فلا أظنك إلا

---

٢٤ يوسف السباعي، **نائب عزرائيل**، ص٣٣.

٢٥ ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** (الرياض: دار عالم الكتب، ١٩٩٧م، ط٢) ج٣، ص٥٦٥.

عاذري في مجوني ولا أظن حديثي عنك إلا ويجد من نفسك موقع القبول.. ولعلي أكون بذلك قد نلت منك الرضاء.. كل الرضاء".[٢٦]

ومهما يكن من أمر نية السباعي وقصده الحقيقي، فإنه يتبين لنا من خلال هذا العرض الموجز أن السباعي قد تجاوز فعلاً الخطوط الحمراء بطريقة تناوله لقضايا العقيدة الإسلامية مما لا يدع مجالا للشك أن فكرة إنصاف عزرائيل وتقديره ليست إلا حيلة أراد بها تضليل القراء، وإنقاذ نفسه من سهام النقد. لقد اتفق علماء الأمة على أن التهكم والاستهزاء بركن من أركان الإيمان والعقيدة ـ حتى وإن كان من قبيل المزاح والترويح ـ كفر صريح يخرج المسلم من الملة، يقول تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ {التوبة: ٦٥-٦٦}.

دور النقد الإسلامي

يذهب بعض النقاد إلى أن الأحكام النقدية أحكام ذاتية تأثيرية يستطيع أن يطلقها كل قارئ وكل كاتب، وليس عليه ضير ولا منها ضرار لأي أحد لأنها آراء شخصية قد تكون على صواب وقد يجانبها الصواب. ويذهب فريق آخر إلى القول بأنه من الخطأ محاكمة الفن بميزان العقيدة، أي أن الحكم على الفن بمدى التزامه بالعقيدة أو عدم التزامه بها خطأ شنيع، ذلك أن لكل منهما منهجا وخصوصية وقانوناً.

إن الذين يشيعون هذه الأقوال إنما يريدون فصل العقيدة عن الفن، أو تحرير الفن من ضوابط العقيدة والدين. وفي معرض الإجابة والرد على هذه الدعاوي، يقول د. عمر الساريسي: "قول الكاتب أن لكل منهما (منهجاً وخصوصية وقانوناً) صواب، وفيه وصف لطبيعة كل منهما بأنها من غير طينة الأخرى. فالعقيدة ما تنعقد عليه الهمم بالنوايا من الأفكار، التي توضع موضع الإيمان والثقة والاحترام، وقد تكون سماوية ربانية وقد تكون وضعية بشرية. والفن انسجام بين قيم الحق والخير والجمال... وحينما ينظر الباحث في عزل العقيدة عن الفن يذكر، في تاريخ النقد، فكرة فصل المعنى عن اللفظ، ومحاسبة كل منهما على حدة، كما يخطر بباله الصراع الذي قام بين المذاهب الأدبية، من فكرة الفن الخالص والفن الواقعي، أو شعر الفن

---

٢٦ يوسف السباعي، **نائب عزرائيل**، ص٤-٥.

للفن والفن للحياة والمجتمع".٢٧

إن فصل الفن عن العقيدة أمر لا يمكن أن تقبله العقيدة، إذ هل يمكن أن يستقيم الكلام لو فصلنا لفظه عن معناه؟، وهل يستطيع الإنسان النهوض لو فصلنا لحمه عن عظمه؟ إن الأدب في الحقيقة لم ينفصل عن العقيدة في يوم من الأيام سواء كتبه مسلم أو غير مسلم، "ومهما يكن فإن الأدب في هذين القرنين، إذا كان قد انفصل عن الدين، فإنه لم ينفصل عن معتقد أو عقيدة توجهه، أياً كانت هذه العقيدة وأيا كان مصدرها، والمتتبع للمذاهب الأدبية الأوروبية ابتداءً من الكلاسيكية إلى آخر مذهب أدبيّ، أو فني في القرن العشرين، يجد أنها جميعاً قد صدرت عن معتقد أو مفهوم خاص، حتى ما سمي بمذهب الفن للفن الذي يدل ظاهر تسميته على أنه يعزل الأدب عن الحياة ومؤثراتها الفكرية، فإنه يعبر عن تصور ومنهج ومعتقد خاص عن الحياة، ومن ثم الأدب نفسه".٢٨

إذاً فالعمل الأدبي مرآة لعقيدة كاتبه، ففساد العقيدة فساد للعمل الأدبي ككل. فلو ألّف أديب رومانسي قصة، أو قصيدة تمجد المبادئ الكلاسيكية متناسياً ومتجاهلاً ما يفرضه عليه مذهبه الرومانسي من قيود والتزامات، فإنه يكون قد خرج من لونه ومذهبه معرّضاً نفسه لغضب كل الرومانسيين ونقدهم. وكذلك الحال بالنسبة للأديب المسلم، فالذي يحاول التحرر من عقيدته الإسلامية، لا بُدَّ وأن يتحمَّل مغبة فعله، وردَّة فعل المجتمع الإسلامي الذي لن يرضى بأي حال أن تُمتهن عقيدته وكرامته.

لقد قدَّم الإسلام لنا الأسس العامة في حياتنا، فكل إنسان مسلمٍ راعٍ ومسؤول، محاسب على كل ما يكتب ويقول. ومن هنا يستنتج د. نجيب الكيلاني قاعدة لنظرية إسلامية في النقد الأدبي، حيث يقول: "إننا عندما نكتب أدباً يجب أن يكون هذا الأدب ملتزماً بالإسلام، ويخدم هدف الدعوة الإسلامية، وهذا هو المقياس الكبير الذي نقيس به الأعمال الأدبية. فلا خوف على المضمون، فالمضمون يجب أن يكون إسلامياً، وهذه قضية محسومة، وبقيت مسألة الشكل، وهي مسألة نحن فيها كغيرنا نستفيد من الأشكال الفنية الموجودة من الشرق والغرب، فالإسلام لا يحرم ذلك. فكما استعرنا أدوات الحياة

---

٢٧ عمر الساريسي، **مقالات في الأدب الإسلامي** (الأردن: دار الفرقان للنشر والتوزيع، ١٩٩٦م، ط١) ص٢١-٢٢.

٢٨ نصر الدين إبراهيم، **نحو إطار إسلامي للشعر الحديث** (ماليزيا: الجامعة الإسلامية العالمية، ١٩٩٨م، ط١)، ص٧٦.

الحديثة نستطيع أن نستفيد من الأشكال الفنية المعاصرة في المسرح والقصة والشعر".[٢٩]

إذاً لا بأس من تحليل النص تحليلاً فنياً باستخدام المناهج والأدوات الغربية المعاصرة، لكن يجب علينا في المقام الأول وقبل كل شيء قياس مدى التزام العمل الأدبي بالإسلام في مبادئه وقيمه. لكن قد يقول قائل بأن "واقع الخطاب الروائي هنا مفترض، أي أنه عالم رمزي، يعلو على الواقع الفعلي، ولا يندمج فيه، يتماشى معه دون أن يكونه"[٣٠]، لذلك فلا ضير في المنهج الذي اتخذه السباعي، فالقصة خيالية لا تمت إلى أرض الواقع بصلة.

لكننا لو افترضنا أن الواقع في الحدث الروائي هو واقع وهمي، فيجب قبول إمكانية حدوثه حتى وإن لم يحدث فعلاً، والشخصية وإن لم تكن واقعية إلا أنها ممكنة في الحياة. هكذا يصبح الواقع الروائي أكثر غنىً وشموليةً من الواقع الفعلي المادي، بدلاً من العبث من أجل الفن وحده والتخبط في لا شيء.

وختاماً فإن الجرأة التي قدم بها السباعي روايته (نائب عزرائيل) لا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تحسب له. فالسبق والتجديد في الفكرة العامة لمحور الرواية إنما كان منبعه احتراس غيره وتوخيهم من الوقوع في مسالك السقوط والانحراف، فكل مسلم يخاف من الخوض في الغيبيات، والتأليف وإطلاق العنان للخيال ليرسم الغيب الذي أخفاه الله سبحانه وتعالى عن البشر لحكمة هو يعلمها. لذلك فإن المجترئ والمغامر الذي أحلَّ لنفسه تصوير الغيب على هواه بدون علم لا يستحق التصفيق والتهليل، بل يجب أن يُحترس منه لكي لا يجرف معه النفوس الضعيفة التواقة إلى المغامرات الخطيرة.

---

٢٩ د. نجيب الكيلاني، **رحلتي مع الأدب الإسلامي** (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥، ط١) ص٢١٢-٢١٣.

٣٠ أحمد جاسم الحميدي، **الرواية ما فوق الواقع**، ص٣٠.